(١٧)

النهج الاستسلامي يعبّر عن نفسه : حواتمه يطمس المضمون التقدمي لنضال الشعب الفلسطيني

هل تصح محاكمة النضال الفلسطيني على اساس مواقف العناصر الرجعية ؟

بقلم : العدنان

مما تقدم يتضح ان تاكيد السيد ابو عمر (على اصالة شعبنا الذي يناضل منذ خمسين عاما ، ويقاتل ضد الانتداب البريطاني والحركة الصهيونية ..الخ) هو تعبير عن الحقيقة المجسدة في وقائع نضال الشعب الفلسطيني ، اما ادعاء السيد حواتمه بان الحركة الوطنية الفلسطينية (وجهت النضال فقط ضد المشروع الصهيوني وتهادنت مع الامبريالية البريطانية .. الخ) فانه ادعاء لا يمثل سوى جانب من الحقيقة ، هو الجانب المتعلق بنضال شعبنا ضد الصهيونية ، اما الجانب الاخر المتعلق بالكفاح الثوري ضد الانتداب البريطاني فان السيد حواتمه يتعمد طمسه .

تعمدا يظهر معه نضال الشعب الفلسطيني موصوما بالعنصرية والطائفية . ان الغرض من عرض الكفاح الفلسطيني بهذه الطريقة ، يستهدف تشويه هذا الكفاح والتقليل من قيمته والنيل من شانه ، لكي يبدو للعيان على غير حقيقته وخلافا لجوهره ومضمونه ، بداءة تنفر منها عقول مرحلتنا الراهنة وتمقتها نفوس جيل الشباب التقدمي ، ليكون هذا النفور وذلك المقت ، مدخلا لطريق الاعتراف باسرائيل . فطالما ان نضالنا قد تحرر من شوائب العنصرية والطائفية اللتان كانتا تطبعانه بطابعهما ــ كما يوحي بذلك كلام حواتمه ــ فلا حواجز تحول بيننا وبين العيش بسلام مع الاسرائيليين ، فان استمرار حالة الحرب مع اسرائيل تفقد مبرراتها ، ذلك ان زوال اسباب العداوة والخصام كفيل باحلال المحبة والوئام !.

ولو لم تكن هذه هي الخلفية التي ينطلق منها السيد حواتمه ، وهذه هي القناعة التي يدور ضمن اطارها ، لما تورط بتوجيه نصائحه الودية لمئير ودايان ولما وجد بآراء ومواقف الصهاينة «المتنورين» امثال «الياف واهارون» اصواتا تدعو الى الانبطاح امام الصهاينة . والركوع على اعتابهم بغية البدء في المرحلة الجديدة ، مرحلة (اننا نناضل في سبيل علاقة سلام بين الفلسطينيين والاسرائيليين) !

ولعل الفكرة التي يلح عليها السيد حواتمه كثيرا لدرجة تكاد معها ان تكون هي دليله الوحيد وبرهانه اليتيم الذي يتمركز عليه في الافراط بدعوته الاستسلامية التي يحاول ان يحيطها بمجموعة حجج هي اقرب الى التلفيقات والافتراءات منها الى الحقائق الموضوعية !

... نقول لعل الفكرة التي يدرجها السيد حواتمه تحت عنوان (من دروس شعبنا) والتي يقول انها درس استخلصه من تجربة شعبنا وثوراته (٢٣٣) والتي يعبر عنها بقوله : (عرض على قياداتنا الفلسطينية دولة ديمقراطية فلسطينية يعيش فيها العرب واليهود قبل التقسيم عام ٤٧ ، فرفضت قياداتنا الفلسطينية وانها لا تقبل في هذه الدولة سوى الذين كانوا في فلسطين حتى عام ١٩١٧ وما جاء بعد ١٩١٧ مرفوض ، والان نحن في عام ٧٤ نناضل من اجل اقامة دولة ديمقراطية فلسطينية على كامل التراب الوطني الفلسطيني نتعايش فيها العرب واليهود بدون قهر اجتماعي او قومي . وهذا متفقة عليه كل فصائل الثورة الفلسطينية) (٢٣٤) .

لعل هذه الفكرة التي يطرحها السيد حواتمه للتدليل على نظرية الاستمرار بمناهضة اسرائيل والتي يتعرف بها عن قصدها بعد ان يحرمها من وسيلة تحقيقها . تكشف جوهر الخلفية التي ينطلق منها السيد حواتمه وتعري القناعة التي يبذل جهودا مثابرة للتعبير عنها . ومع اننا لسنا الان بصدد مناقشتها اذ سنعود اليها فيما بعد ، ولكننا نطلب الانتباه الى ان السيد حواتمه يفهم النضال من اجل اقامة دولة ديمقراطية فلسطينية على انه نضال من اجل علاقات سلام بين الفلسطينيين والاسرائيليين . فشعار الدولة الديمقراطية الفلسطينية التي يتعايش فيها العرب واليهود ، والذي لن يتحقق بمضمونه التقدمي الثوري بغير الكفاح المسلح ، يتحول الى دليل استكانة ومفهوم استسلام على يد فيلسوف المفاوضات المباشرة مع اسرائيل !

على كل حال ، ان الاسلوب الذي ينتهجه حواتمه لطرح افكاره وارائه اسلوب خبيث يعتمد الغموض عنصرا اساسيا ويتجنب الصراحة والصدق لكي يفلت من ردود الفعل المضادة . فهو يتخذ من فكرة الدولة الديمقراطية التي يتعايش في ظلها العرب واليهود والتي تتحقق بالاستناد الى ارادة القتال ، منطلقا لطرح فكرة اخرى يمكن استقراؤها من مضمون مبادرته الصحفية الاخيرة ، ومحتواها : اذا كنا على استعداد للعيش مع اليهود في دولة واحدة ، فلماذا لا نتعايش الان ومن خلال مؤتمر جنيف مع الاسرائيليين ، ونحصر النضال في نطاق الصراع الطبقي بيننا وبين الاسرائيليين الذين لا نتفق واياهم ، وقد مهد لطرح وجهة نظره الفلسفية هذه بشن حملة اعلامية حاول معها ان يصور النضال الفلسطيني تصويرا مغرضا ظهر معه عنصريا رجعيا ، وربط بين هذا المظهر المشوه للنضال الفلسطيني وبين الموقف الرافض للمفاوضات مع الصهاينة وبالتالي للتسوية السياسية التي هي تسوية استسلامية ، وهو يقوم بهذا الجهد ويتبع هذا الاسلوب على امل ان يدفع الجماهير لان تستنتج بان الاستمرار في مناهضة الكيان الصهيوني اي موقف الرفض ، هو موقف قومي عنصري رجعي لانه يمثل امتدادا لموقف المفتي ومن على شاكلته . وبالتالي فان الموقف التقدمي الاخر ، هو الموقف الذي ينشد التفاهم مع الاسرائيليين بغية وضع الاسس للتعايش وحسن الجوار ونبذ حالة الحرب القائمة وكل ما نجم عنها من عداء وتعصب !

ان الموضوع ليس موضوع تعايش مع اليهود او عدم تعايش معهم ، فهذا امر مفروغ منه بالنسبة لكل التقدميين العرب ، اذ ليس شيوعيا وحتى ليس تقدميا من يقف موقف مناهضة لليهود لانهم يهود .. ان الموضوع الذي ينبغي ان يناقش ليس هذا ، وانما هو مع اي نمط من اليهود ينبغي ان نتعايش من اجل ان نصنع الحياة التي ننشدها والتي يتحرر الانسان ، بغض النظر عن لونه ودينه وجنسه في ظلها ، من الاستغلال والاضطهاد والقهر القومي والطبقي ، هل مع اليهود الصهاينة الاسرائيليين ام مع اليهود الذين شاركونا مشاعرنا ونضالنا من اجل تحرير الارض والانسان من نير الاستعمار والاستغلال ؟

هناك فرق كبير جدا بين المنطلقين والنهجين وبالتالي بين الاسلوبين والنظرتين ليس للحاضر وانما للماضي والمستقبل ايضا .

ان افكار السيد حواتمه تستحق مزيدا من المناقشة والبحث ولذلك سنواصل ملاحقتها !

هل تصح محاكمة النضال الفلسطيني على اساس مواقف العناصر الرجعية ؟

يتصدى صادق جلال العظم للاجابة على هذا السؤال بالنفي ، من خلال مناقشته لتاليان وابنشتوك الذي يقول عن ثورة ١٩٣٦ ، انها كانت (انتفاضة معادية للاستعمار تولى القيادة العرب وبريطانيا صرفها عن اهدافها لتصبح حركة معادية للصهيونية) (٢٣٥) .

هذه الفكرة غير الدقيقة المكونة لدى وابنشتوك عن ثورة عام ١٩٣٦ ، يتصدى لمناقشتها العظم فيقول :

(لا شك ان الاستعمار قد نجح بالتواطؤ مع الزعامات العربية الفلسطينية الدينية والاقطاعية والعشائرية والبرجوازية ، في حرف الثورة عن اهدافها الحقيقية ومن ثم اجهاضها نهائيا . ولكن هذه الحقيقة لا تؤدي الى النتيجة الساذجة التي توصل اليها وابنشتوك ، لانه اذا كانت ثورة ١٩٣٦ معادية للاستعمار ، باعتراف كل باحث تقدمي ، واذا كانت الصهيونية متحالفة تحالفا عضويا ومصيريا مع الاستعمار ، كما يردد وابنشتوك باستمرار ، فان الاستنتاج السليم لا يمكن ان يكون الا ان الثوره الفلسطينية كانت معادية للصهيونية ايضا وبالضرورة اي انها كانت انتفاضة معادية للاستعمار بشكليه الرئيسيين في فلسطين : الحكم الانكليزي وسيطرته ، والاستيطان الصهيوني واغتصابه المستمر لارض الوطن) (٢٣٦)

هذا الخطا الذي وقع فيه وابنشتوك ، وهو كاتب اجنبي ليس عربي وليس قائدا من قادة المقاومة الفلسطينية الذين يفترض فيهم ان يبرهنوا على فهمهم للنضال الذي يخوضونه والذي هو امتداد لنضال شعبهم على امتداد الخمسين سنة الماضية ، لنقول هذا الخطا الذي وقع به كاتب اجنبي والذي لاحظه العظم وتصدى لكشفه ذودا عن مضمون الثورة التقدمي وخدمة لطلاب الحقيقة يعلل صادق العظم سبب الوقوع به فيقول :

(عند التدقيق في مقالة وابنشتوك يتبين ان مصدر الخطا الذي وقع فيه هو عدم تمييزه بوضوح بين الثورة كحركة شعبية ذات اهداف معينة من ناحية وبين الزعامات الفلسطينية والعربية التي هيمنت عليها من ناحية ثانية قامت الثورة على اساس مبادرة شعبية ضد الاستعمار الانكليزي والوجود الصهيوني « ثورة القسام في اواخر عام ١٩٣٥ » ولم يكن للزعامات التقليدية الفلسطينية علاقة حقيقية بقيامها بالرغم من انها هيمنت عليها فيما بعد وقادتها الى حتفها) (٢٣٧) .

ثم يستطرد العظم في شرح تامر الهيئة العربية العليا وعملاء بريطانيا من الحكام العرب ، على الثورة ، استطرادا يقول بعده : (حين ناخذ بعين الاعتبار هذه الحقائق التي فاتت وابنشتوك ــ والتي يتجاهلها السيد حواتمه الان ــ لا يمكننا ان نصل الا الى نتيجة واحدة حول حتمية معاداة الثورة كحركة شعبية للصهيونية وذلك استنادا الى المقدمات الصحيحة (٢٣٨)

يبدو لي اننا بحاجة لان نتوقف قليلا لنتساءل : اذا كان واينشتوك وهو الكاتب الاجنبي الذي يجد عذره بعدم كامل اطلاعه ومعرفته بحقيقة وقائع الصراع في منطقتنا ، استحق ان توصف افكاره بـ « السذاجة » بسبب عدم ادراكه للعلاقة العضوية بين الحركة الصهيونية والاستعمار من جهة وعدم تمييزه بوضوح بين الحركة الشعبية الثورية وبين الزعامات الفلسطينية والعربية المهيمنة عليها من جهة اخرى . اقول اذا كان وابنشتوك استحق ان يوصف بمثل هذه الصفة ، فباية صفة ينبغي ان يوصف اي من قادة المقاومة الفلسطينية اذا تعمد اتباع اسلوب وابنشتوك في عرضه لوقائع تاريخ النضال الفلسطيني ؟

لا اشك في ان القراء الكرام سوف يستغربون اقتراف مسؤول من المسؤولين في المقاومة الفلسطينية خطيئة تسيء الى نضال شعبه . والحق ان ما يمكن ان يوصف بالسذاجة بالنسبة لوابنشتوك يعادل العمالة والخطيئة ان لم نقل الجريمة بالنسبة لقادة المقاومة الفلسطينية !

ان اية محاكمة موضوعية منصفة غير مغرضة لمسيرة النضال الفلسطيني وخاصة في فترة الثلاثينات ، لابد ان تشهد بصواب ما ذهب الدكتور العظم اليه ، ولا يمكن ان يتهم الرجل بالانحياز لابناء شعبه العربي لانه ينطلق مما هو معروف عن ان العناصر الرجعية اصلا لم تكن قد الحركة الشعبية الثورية ، فقط بل انها اي العناصر الرجعية لم تجد طريقا مجدية لاجهاض ثورات الحركة الشعبية واحباط انتفاضاتها غير طريق تاييدها وركوب موجة حركتها ليس من اجل دعمها وتوفير مستلزمات نجاحها وايصالها الى نهاياتها المظفرة ، وانما من اجل الحفاظ على مواقعها القيادية في صفوف الحركة الوطنية من جهة ومن اجل السعي لزج الثورة في مازق مسدود وحشرها فيه بغية خنقها ببطء ومنعها من بلوغ اهدافها من جهة اخرى .

هذه البديهة البسيطة ، بساطة الحقيقة والمعروفة لدى جميع المتتبعين لمسيرة الحركة الشعبية الفلسطينية التي تتميز عن غيرها من حركات شعبنا العربي بخصوصية استطاعت العناصر الرجعية ان تستغل بها مخافة السقوط عن مسرح النضال الوطني كما سقطت زميلاتها في ساحات النضال العربي الاخرى ... اقول هذه البديهة البسيطة يتجاهلها السيد حواتمة ، تجاهلا يعبر عنه بقوله :

(قبل ٤٨ لم تحدد قيادة الحركة الوطنية على امتداد تاريخها الحلقة المركزية في النضال في تلك المرحلة بانها مرحلة صراع ضد الانتداب البريطاني من اجل طرده واعتباره هو الاصل ، والكفيل عند طرده بحل مشكلة الهجرة اليهودية ، فصرفت انظار الجماهير الفلسطينية بشكل اساسي الى الصراع ضد الهجرة وليس ضد الانتداب الذي هو الاصل ، مما جعل طاقات الشعب تتبدد في صراعات من المرتبة الثانية بدلا من ان تصب وتوحد وتتوحد في دائرة الحلقة المركزية للصراع ضد الانتداب ، بينما اتخذت قيادة الحركة الوطنية سياسة المهادنة والمساومة الدائمة مع الانتداب البريطاني وليس تشديد الصراع ضد الانتداب البريطاني ، مما جعل النضال يتم على الجبهة الثانية وليس الجبهة الاصل في الصراع كما ارتكبت ايضا خطاها ثانية بانعقاد الحلقة المركزية عشية قرار التقسيم عندما رفضت مشروع الدولة الديمقراطية الفلسطينية ، اذ كانت تطالب في حينه بدولة فلسطينية عربية نقية وبحجمات الهجرة اليهودية التي دخلت يجب ان تخرج اولا ولا يبقى الا الذين كانوا قبل وعد بلفور . ونحن الان بعد ٢٥ عاما نناضل من اجل تنفيذ وانجاز ما رفضته قيادة الحركة الوطنية قبل ٢٥ عاما) (٢٣٩)

ماذا في هذا الكلام ؟ :

ان هذا الكلام يعيدنا من جديد للسؤال القائل هل تصح محاكمة الحركة الوطنية الشعبية على اساس مواقف العناصر الرجعية العميلة ؟

مرة اخرى دعونا نستطلع راي العظم في موضوع الاجابة على هذا السؤال :

(كانت الزعامات العربية المذكورة تجاهر بعدائها للصهيونية من ناحية وكانت ، بحكم مصالحها الطبقية الحيوية ، ملتحمة اشد الالتحام بالاستعمار في المنطقة لذلك بدا لوابنشتوك الماركسي وكان العداء للصهيونية واليهود عامة هو ظاهرة من خلق هذه الزعامات ومن هم وراءها لحرف انتباه الحركات الجماهيرية العربية عن العدو الحقيقي ، الا وهو الاستعمار بذاته والزعامات الرجعية بنفسها . لقد تنبه وابنشتوك الى امر جوهري ــ اما السيد حواتمة فيتجاهل هذا الامر ــ من ناحيته . وهو ان الزعامات العربية الرجعية المذكورة كانت في الواقع على اعظم استعداد للتفاهم الودي السريع مع الاستعمار الانكليزي ــ وبالتالي مع الوجود الصهيوني ــ كما بين تصرفها حيال الثورة الشعبية بكل وضوح ، ولكنه اهمل تماما ــ كما يهمل حواتمة اليوم ــ من ناحيه اخرى . العامل الاساسي الذي كان يعرقل مساعي الزعامات في هذا الاتجاه ويطبعها بالخوف والتردد : اي الضغط الشعبي الشديد الذي مارسته الجماهير العربية والقوى الوطنية الممثلة لها ضد هذا الخط . وكما ذكرت كان المد الشعبي وكانت القوى الوطنية تعادي الصهيونية وتكافح ضد الحكم الانكليزي بدون تمييز . ان مجرد استخدام زعامات عربية ، عميلة ومدانة ومرتبطة موضوعيا وذاتيا بالاستعمار ، للشعارات المعادية للصهيونية ينبغي الا يؤدي الى التشكيك بصورة اليه باصالة هذه الشعارات ومدى تعبيرها الحقيقي عن مطامح الحركة الوطنية الشعبية . لقد رفعت الزعامات العربية اياها هذه الشعارات لصيانة نفسها ووضعها المتهافت جماهيريا ووطنيا ، اي رفعتها على طريقة مرغم اخاك لا بطل » (٢٤٠)

هذا هو رد صادق العظم على السؤال ، وهو رد لا يمكن ان يوصف بغير الموضوعية والعلمية . نعم (لقد تبلور الشعور المعادي لليهود في الحركة الوطنية العربية قبل عام ١٩٤٨ ومن خلال نضال الجماهير المستمر ضد الصهيونية وضد السيطرة الاستعمارية عامة) (٢٤١)

مرة اخرى اذا كان موقف وابنشتوك يوصف بانه يقوم (على الخلط بين الحركة الوطنية العربية كتيار جماهيري وبين الزعامات الطبقية التقليدية والحكومات العربية الرجعية التي كانت مهيمنة بمساعدة النفوذ الاستعماري في تلك الفترة) (٢٤٢) .. اقول اذا كان موقف وابنشتوك يوصف بالسذاجة والخلط ، فماذا يوصف موقف السيد حواتمة ؟ هل يمكن القول تبريرا لموقفه بانه يجهل الحقائق الفلسطينية ونتيجة هذا الجهل فانه يخلط كما هو حال وابنشتوك وهو القائد الفلسطيني الذي يعتبر نفسه (امين عام يسار الثورة) ؟ وهل يمكن ان يقال انه اخطا التعبير وعجز عن ايضاح وجهة نظره ، وهو الذي كرر القول صباح مساء طيلة الفترة الماضية وما زال يواصل التكرار بتركيز تارة واسهاب تارة اخرى ؟

واذا كنا لا يمكن ان يبرر موقفه ولا يمكن ان يفسر بغير الاصرار المبني على سابق معرفة ليس بالوقائع التي يقوم بتحريفها وافراغها من مضامينها الا يحق لنا ، ونحن الذين نعارض اراءه ووجهات نظره ، ان نتهمه بطمس المضمون التقدمي لنضال شعبنا العربي الفلسطيني ؟

المنطق الحواتمي يبرىء ذمة العناصر الرجعية !

اذا امعنا النظر بكلام السيد حواتمة ودققنا فيه بعناية ، سوف نخرج بواحدة من نتيجتين : اما ان تكون العناصر الرجعية مرتبطة بالاستعمار ارتباطا مباشرا ، واما انها طاهرة الذيل بريئة من العمالة براءة الذئب من دم ابن يعقوب . لا يمكننا ان نخرج بغير هاتين النتيجتين اطلاقا . وامام الاختيار لاي منهما فان المنطق الحواتمي ينهار برمته ويسقط من عليائه كما تسقط الاوراق اليابسة في مهب رياح الخريف .

فلو كان جواب السيد حواتمة لدى سؤاله عن طبيعة هذه العناصر وعن ارتباطاتها بالاستعمار بانها عناصر عميلة لكان جوابه شهادة تاكيد لكل اتهامنا له بانه يتعمد طمس المضمون التقدمي لنضال الشعب الفلسطيني ، حين يتخذ من مواقف هذه العناصر العميلة مقياسا لمحاكمة الحركة الوطنية الشعبية ، التي كانت تناضل على جبهتين : جبهة الاستعمار بشكليه : الانتداب الانكليزي والاستيطان الصهيوني ، وجبهة العناصر الرجعية العميلة التي كانت تكبل انطلاقة الحركة الوطنية الشعبية وتعيق اندفاعها . ويتهم حركة الجماهير الثورية بانها كانت تقاتل الفرع ولم تقاتل الاصل .

وان كان جوابه ، وهو الجواب الذي يفهم من كلامه ــ بانها ليست عميلة ، وان كل جريرتها تتلخص بعدم قدرتها على تشخيص الحلقة المركزية الخاصة ، اي انها عناصر مخطئة ، وسبب خطاها كانت (طاقات الشعب تتبدد في صراعات من المرتبة الثانية بدلا من ان تصب وتوحد وتتوحد في دائرة الحلقة المركزية للصراع ضد الانتداب) انها كانت توجه الصراع وتقوده على (الجبهة الثانية وليس على الجبهة الاصل) على حد تعبير (السيد امين عام يسار الثورة الفلسطينية ودولتها المنتظرة) فهل صحيح ان دور العناصر الرجعية العميلة ، وكل جريرتها تتلخص في الخطا الذي ارتكبته حين اخفقت بتشخيص الحلقة المركزية ؟ ثم الا يعني كلام السيد حواتمة هذا تبرئة لذمة هذه العناصر من تهمات التامر الذي كانت تمارسه ضد الثورية والعنف الثوري في حركة الكفاح الشعبي الفلسطيني .. تبرئة خالصة يقدمها « يساري » «الماركسي ــ لينيني » لوجه «الله تعالى» ومع ذلك يتهم معارضوه بانهم يتحدثون بلغة جريدة العروة الوثقى التي تصدر عن جمعية النهي عن المنكر في السعودية ؟

ان اي باحث تقدمي يدرس وقائع نضال الشعب الفلسطيني ، ازلم يقع بخطا فانه سيخرج بنتيجة محتواها ان هذا الكفاح كان يمكن ان يحقق اهدافه ، لولا الدور السلبي الذي لعبته العناصر الرجعية في خدمة اعداء الثورة . يقول غسان كنفاني مشيرا الى تصاعد الثورة بعد اغتيال الحاكم البريطاني اندروز في ايلول ١٩٣٧ على يد الثوار (.. من المؤكد ان هذه المرحلة من الثورة قد اتجهت بصورة جوهرية ، ان لم نقل كلية ، ضد البريطانيين وليس ضد الصهيونيين وقد افرز ، نمو التناقض ، المواقف افرازا اكثر حسما : فبين الفلاحون كليا تقريبا على الثورة ، وتراجع دور البرجوازية المدنية قليلا الى الوراء ، واخذ اثرياء الريف وكبار الفلاحين المتوسطين يترددون في مساندة الثوار ، وانتقلت القوى الصهيونية الى حالة هجومية فعالة) (٢٤٣)

ولذلك يؤكد كنفاني على انه (في تاريخ النضال الفلسطيني برمته لم تكن الثورة الشعبية المسلحة اقرب الى الانتصار مما كانت عليه في تلك الشهور التي امتدت بين اواخر ١٩٣٧ و اوائل ١٩٣٩ . لقد ضعفت في هذه الفترة سيطرة القوات البريطانية على فلسطين ووصلت هيبة الاستعمار الى الحضيض ، واصبحت سمعة الثورة ونفوذها هما القوة الاساسية في البلاد) (٢٤٤)

(وبحلول نهاية شهر اب ــ ١٩٣٨ وعلى الرغم من الاجراءات التاديبية الشديدة ضد الجماهير المساندة للثورة كانت الادارة الحكومية المدنية في المدن الرئيسية قد انهارت انهيارا يكاد يكون تاما) (٢٤٥)

ويعرب هايننغ القائد العسكري الانكليزي العام عن مخاوفه حين يقول : (لقد بلغت سيطرة عصابات الثوار على جماهير الشعب ... حدا لم يعد معه مما يجانب الصواب ان يقال ان كل عربي في البلاد هو عدو كامن للحكومة مهما بلغت عواطفه الشخصية الخاصة من الاعتدال) (٢٤٦)

ولكن هذا المستوى الذي بلغته الثورة وتصاعدها كان يصطدم الى جانب اشتداد الحملة الانكليزية والصهيونية ، بالدور المعيق الذي كانت تلعبه القيادات الرجعية التقليدية ، ولعل مؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد في لندن في شباط ١٩٣٩ .. نقول لعل ذلك المؤتمر يمثل نموذجا للتامر الذي كان يجري (طوال الوقت بصمت بين قادة الثورة الفلسطينية وبين البريطانيين الذين كانوا يعرفون يقينا استعداد تلك القيادة للمساومة في اية لحظة) (٢٤٧) ، وقد لعب البريطانيون (دورا بارزا في ابقاء المفتي بمثابة الممثل غير المنازع لعرب فلسطين ، فقد كان احتياطهم من القيادة الواقعة على يمين المفتي قد احترق عمليا ، ولذلك لم تكن عملية استبعاد المفتي من اعتباره الزعيم الاوحد الا عملية « لا تبقي من يستطيع تمثيل العرب سوى قادة الثورة في الجبال) (٢٤٨) وحتى وايزمان كان يقول (انه يعتقد بان بامكانه رشوة معظم الزعماء العرب) (٢٤٩) .

مما تقدم يتضح صواب قولنا بان وجود العناصر الرجعية على راس حركة الكفاح الثوري الفلسطيني كان هو السبب الاساسي في اجهاض الثورة الفلسطينية التي كان ثوارها يناضلون على جبهتين كما اسلفنا .

هذه الحقائق التي لا يختلف عليها انسان تقدمي ، يقفز عليها السيد حواتمه ، فنقرا يقول معه بان الفشل الذي مني به الكفاح الفلسطيني كان سببه الخطا الذي وقعت به القيادة الرجعية حين عجزت عن تحديد الحلقة المركزية الخاصة ، وبذلك يبرىء ذمة هذه العناصر من جريرة التامر مع الاستعمار على اجهاض الثورة !

فاذا كانت المسالة بالفعل ، هي مسالة خطا في تحديد الحلقة المركزية الخاصة وقعت به هذه القيادة ، فان تصرفها حيال الاستعمار الانكليزي يصبح مبررا لخطئها ذاته ذلك طالما انها حددت الحلقة المركزية بمحاربة الهجرة الصهيونية اعتقادا منها بان هذا هو عدوها الرئيسي ، فان مهادنة سلطة الانتداب التي اعتبرتها هذه القيادة عدوا ثانويا ، وحتى مساومتها تصبح مبررة برغبة هذه القيادة في تضييق دائرة العدو الرئيسي وحصرها ما امكن ضمن نطاق دائرة الصراع الرئيسية التي حددتها ــ خطا ــ في الصراع ضد الهجرة اليهودية وبالتالي ضد الحركة الصهيونية . طبعا نحن لا نفصل اصلا بين سلطة الانتداب والحركة الصهيونية لان الفصل برايها عمل نمقته بيد اننا نتبسط في مناقشة منطق الفلج فلاوقع انه مفرض !

يروي كارل ماركس في كتابه الهام بؤس الفلسفة : ان حالة كانت سائدة في الامبراطورية الرومانية ، حيث كان السادة الارستقراطيون يربون نوعا من السمك في احواض خاصة ليوفروا لهم طعاما شهيا . وحين كان الشعب لا يستطيع شراء الخبز ، وكان اولئك السادة يلقون بالعبيد طعاما للسمك الذي في الاحواض كان البعض يشخص مشكلة الافقار المتزايد وعجز الجماهير عن توفير طعامها الضروري ، بخطا اولئك السادة الارستقراطيين الذين جعلوا كمية السمك محدودة لا تكفي لكل الشعب ، بدلا من تشخيص العلة بوجود طبقة السادة نفسها لان مشكلة الفقر والمجاعة ناتجة عن وجود هذه الطبقة ، وبالتالي فان الحل لن يتحقق بغير زوالها . الا يذكرنا منطق السيد حواتمة بمنطق اولئك الاقتصاديين « العباقرة » الذين كانوا يرجعون سبب الفقر والمجاعة في الامبراطورية الرومانية ، لقلة كمية السمك وليس لوجود نظام العبودية ذاته ، حين يقول لنا بان سبب فشل النضال الفلسطيني الثوري يرجع الى خطا وقعت به القيادة وليس الى طبيعة تلك القيادة الطبقية وارتباطاتها السياسية المشبوهة ؟ اليس هذا هو المنطق المفلوج الذي يتمنطق به في العادة اليساريون الذين فسدت ماركسيتهم ؟

ليس هنا لشك ، بامكانية ان يقود خطا كبير قاتل الى الفشل بيد ان فشل الثورة الفلسطينية لا يرجع الى خطا جزئي جدا اذا ما اخذنا الارتباط الوثيق بين الاستعمار البريطاني والصهيونية . فمحاربة الصهيونية كانت تفضي بالضرورة الى محاربة الانتداب وقد افضت بالفعل ، ولذلك كانت بريطانيا حريصة جدا على ابقاء المفتي ومن هم على شاكلته على راس الحركة الوطنية لكي تمسك بضوابط اعاقة انطلاقة الثورة الى نهاياتها الحاسمة !

البقية في العدد القادم

---

(٢٣٣) الحرية ، العدد ٦٥٠ في ١٧/١٢/٩٧٣
(٢٣٤) الحرية ، المرجع السابق
(٢٣٥) صادق جلال العظم ــ دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية ص ٤٢ .
(٢٣٦) العظم ، المرجع السابق ص ٤٢
(٢٣٧) العظم ، المرجع السابق ص ٤٣
(٢٣٨) العظم ، المرجع السابق نفسه ص ٤٤
(٢٣٩) المقاومة الفلسطينية امام التحديات الجديدة ــ شؤون فلسطينية العدد ٣٠ شباط ١٩٧٤ ص ٢٥
(٢٤٠) العظم ، المصدر السابق ص ٤٤ــ٤٥
(٢٤١) العظم ، المرجع السابق ص ٤٨
(٢٤٢) العظم ، المرجع السابق
(٢٤٣) كنفاني المصدر السابق ص ٢٥
(٢٤٤) كنفاني المرجع السابق ص ٢٦
(٢٤٥) الكيالي المرجع السابق ص ١٧١
(٢٤٦) الكيالي المصدر السابق ص ١٧٢
(٢٤٧) كنفاني ، المرجع السابق ص ٢٧
(٢٤٨) كنفاني المصدر السابق ص ٢٦ وراجع ايضا الكيالي المصدر السابق ص ١٧٣
(٢٤٩) الكيالي المصدر ذاته ص ١١٩